الفصل الرابع

دور المحتسب في النواحي العمرانية بمكة والمدينة

1- الحسبة على الأوقاف:-

نظرًا للأهمية الدينية لكل من مكة والمدينة، ولقدوم أعداد كبيرة من الحجاج والمعتمرين والزوار لهاتين المدينتين، ولضعف مواردهما الاقتصادية واعتمادهما بشكل أساسي على ما يأتيهما من الخارج، فقد ساهم سلاطين المماليك مساهمة فعالة في معالجة أوضاعهما الاقتصادية، وذلك بتحبيس الأوقاف على الحرمين الشريفين، وصرف ما يرد منها على اهل مكة والمدينة والقادمين إليهما.

وكان لتلك الأوقاف أثرها الاقتصادي والاجتماعي، ففيما يخص المدينة في سنة (743هـ/ 1343م) وقف السلطان الملك الصالح عماد الدين اسماعيل بن الملك الناصر ثلثي ناحية سندبيس من القليوبية بمصر على ستة عشر خادما لخدمة الضريح الشريف النبوي[1].

وقد أوردت المصادر[2] أنه في عشر الستين وسبعمائة اشترى السلطان الصالح اسماعيل بن الناصر محمد قرية من بيت مال المسلمين بمصر وقفها على كسوة الكعبة المشرفة في كل سنة وعلى كسوة الحجرة المطهرة والمنبر في كل خمس سنين مرة وقيل في كل ست سنين مرة.

كذلك التزم السلاطين المماليك بحمل الغلة إلى الحجاز ليشملوا برعايتهم أهل المدينة، فقد أمر السلطان المملوكي الظاهر بيبرس بأن تحمل إلى المدينة في كل سنة مائتي أردب غلة[3].

---

(1) المقريزي: السلوك، ج2 ص 633. ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج10 ص 85.

(2) أبو الطيب الفاسي: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، دار الكتب العلمية، ط1، (1421هـ/2000م)، ج1 ص 123، السخاوي: التحفة اللطيفة، ج1 ص 319 -320. السمهودي: وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، تحقيق: قاسم السامرائي، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، 2001م، ج2 ص 584، النابلسي: الرحلة، ص 348.

(3) ابن عبد الظاهر: الروض، ص 352 -353.

وفي عام (884هـ/ 1480م) بعد عودة السلطان المملوكي قايتباي من المدينة إلى مصر بعد أدائه فريضة الحج وزيارة المسجد النبوي شرع في شراء أماكن وجعلها وقفا ليحمل ريعها إلى المدينة ليفرق منه على أهلها ويعمل منه سماط، وكان يحمل إلى المدينة من مصر كل سنة سبعة آلاف إردب من الحب.

كما شرع القائمون على عمارة المسجد النبوي ببناء رباط ومدرسة للسلطان قايتباي ورباط آخر مكان رباط الحصن العتيق وحمام وسبيل وفرن وطاحون ومطبخ ووكالة ذات حواصل بعد أن تم شراء عدة دور بالمدينة وهدمها[1].

شمل جانب الحسبة توفير سلاطين المماليك المناخ الملائم للمعيشة بالحجاز فبعض الأمراء المماليك ساهموا بنصيب في تلك الأوقاف، ففي سنة (807هـ/ 1404م) قام الأمير شيخ نائب السلطنة المملوكية في الشام بإيقاف جميع أملاكه على ذريته وعلى جهات بر، منها "مائتا قميص تحمل في كل سنة إلى مكة والمدينة، مربوط على كل قميص عشرة دراهم فضة، تفرق في الفقراء، ومنها مبلغ لمن يطوف عنه كل يوم، أسبوعا، ومنها لعشرة أيتام، في كل من الحرمين، مؤدب يقرئهم القرآن"[2].

ولأجل التخفيف من موجات الغلاء، فقد ساهمت الصدقات في تخفيف ذلك ففي عام (716هـ/ 1316م) تصدق نائب السلطنة بالقاهرة سيف الدين أرغون (الدوادار) الناصري بصدقات كثيرة بمكة والمدينة[3].

(1) السخاوي: التحفة اللطيفة، ج3 ص 411. السمهودي: وفاء الوفا، ج2 ص 644، 714 -715.

(2) ابن إياس: بدائع الزهور، ج1 ص 718.

(3) الجزيري: الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط 1 ، (1422هـ/ 2002م)، ج1 ص 622.

وفي سنة (766هـ/ 1365م) وصلت إلى مصر الأخبار بوقوع موجة من الغلاء بالحجاز، فلما سمع الأتابكي يلبغا العمري أرسل إلى مكة اثني عشر ألف أردبا من القمح، فتم تفريقها على الفقراء والمساكين بمكة والمدينة[1].

وفي سنة (787هـ/ 1385م) أرسل الأمير جركس الخليلي قمحًا كثيرا إلى الحرمين الشريفين ليعمل منه كل يوم خمسمائة رغيف لمكة ومثلها للمدينة، فكان لذلك أثر طيب في نفوس أهل المدينتين والقادمين إليهما[2].

كما ساهم أمراء الحج بنصيب في تخفيف موجات الغلاء والتصدق على الفقراء والمساكين في مكة والمدينة، فقد ذكر أنه في سنتي (699-700 هـ/ 1299-1300م) كان امير الحج "بكتمر الجوكندار" "قد أنفق في حجه ثمانين ألف دينار، وجهز لجدة مراكب مشحونة بالأطعمة الأزواد من جميع الحبوب وغيرها من الحلويات، والأعسال والزيت، والسكر وما يحتاجه إليه الحاج في الأسفار، وجهز للينبوع أيضا ثلاث مراكب مشحونة بما ذكر، ونادى مناديه: من كان محتاج لشيء ليحضر، وكل من حضر وطلب شيئا أعطاه، وفرق على من حضر وعلى من لم يحضر حتى عم أهل الينبوع وأهل الحرمين خيره وإحسانه ملا وطعاما وإداما وغير ذلك"[3].

ويتضح هنا أهمية توفير المحتسبين للغلال والمؤن وتوفير الظروف الملائمة للمعاش لأهل مكة والمدينة، من قبل كل من السلاطين وأمراء الحج، وغيرهم. وكانت ترسل الرسائل التي تحض

(1) ابن إياس: المصدر نفسه، ج2 ص 16-17.

(2) المقريزي: السلوك، ج3 ص 536، ابن فهد: الإتحاف، ج3 ص 348، ابن الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق: حسن حبشي، دار الكتب والوثائق القومية، ط2، 1970م، ج1 ص 122.

(3) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج8 ص 146. أحمد الرشيدي: حسن الصفا والابتهاج بذكر من ولي إمارة الحاج، تحقيق: ليلى عبد اللطيف أحمد، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1980م، ص 128، أحمد محمد عدوان: المماليك وعلاقاتهم الخارجية، دار الصحراء السعودية للنشر والتوزيع، ط1، (1405هـ/1985م)، ص 151.

على توطيد الامن الغذائي من الغلال وخاصة القمح. كما تبين أن السلاطين أنفسهم وأمراء الحج مارسوا الحسبة على مراقبة الغلاء وتوفير المؤن بالحجاز.

2- الحسبة على الأربطة:-

كان يوكل إلى القاضي حسبة تأجير الأربطة التي بمكة، وهذا يدل على أن القاضي كان مؤتمنًا على بيت مال المسلمين، فقد أجر القاضي أبو السعادات بن ظهيرة رباط رامشت عام (854هـ/ 1450م)[1]، واستأجر الشريف حسن بن عجلان وقفا للمستنصر العباسي بالقرب من المسجد الحرام عام (816هـ/ 1413م) من القاضي الشافعي جمال الدين[2].

3- تولية مشيخات الأربطة:-

ومن أعماله أيضًا تولية مشيخات الأربطة لمن يرونه أهلا لذلك فقد ولي القاضي برهان الدين بن ظهيرة السيد عبد الله بن عبد الواحد بن محمد الشيرازي البصري[3] مشيخة رباطي الشريفين حسن وبركات[4]، ومن ذلك تعيين القاضي الشافعي لأبي زرعة بن نور الدين علي المنوفي المصري شيخًا لرباط ربيع عام (916هـ/ 1510م)[5].

(1) قطب الدين النهروالي: الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، تحقيق: هشام عبد العزيز عطا، (د.ت)، ص 238.

(2) ناجي معروف: المدارس الشرابية ببغداد وواسط ومكة، مطبعة الإرشاد، 1965م، ص 345.

(3) هو عبد الله بن عبد الواحد بن محمد الشيرازي البصري الشافعي نزيل مكة، ولد عام (819هـ)، بالبصرة، نزل مكة، واستقر في مشيخته، رباطي الشريفين حسن وبركات، وتوفي بمكة عام (893هـ/ 1487م).

السخاوي: الضوء اللامع، ج5 ص 30.

(4) ابن فهد: الدر الكمين، ج1 ص 917.

(5) عبد العزيز بن فهد: بلوغ القرى، ج1 ص 448.

4- الحسبة على الطرق (طريق الحج):-

ويأتي طريق الحج في مقدمة الطرق التي عني بها أشد عناية، كما تجلى طريق الحج بأهميته الخاصة عن الطرق الأخرى، وكانت الحسبة قائمة على إصلاح المنشآت والمرافق فيه من قبل سلاطين المماليك واهتمامهم بهذا الطريق لتسهيل الحج وتنشيط الحركة التجارية[1].

ويبدأ الطريق البري من "بركة الحاج" على مرحلة واحدة من القاهرة[2] إلى الشمال الشرقي منها، وهي مركز الحجاج في مصر والأندلس والمغرب وأفريقيا وغيرها وكانت تعرق باسم "جب عميرة"[3]، و"بركة الجب"[4].

وكان أمراء وسلاطين المماليك يعتنون بهذا الطريق بتوفير منافع الحجاج، وما يحتاجه المسافرون من المركوب والمأكول والملبوس بحيث من أراد ابتداء السفر من "البركة" يتهيأ له سائر ما يحتاجه من أسبابه وينتظم بها سائر أحوال الركب[5].

وفي عام (828هـ/ 1424م) في سلطنة الأشرف برسباي عمر زين الدين بن عبد الباسط في البركة بستانا وساقية ماء وأنشأ بها فسقية كبيرة تملأ بالماء وكان بها نفع كبير للحجاج والتجار[6].

وقد توالت يد التعمير والإنشاء على هذه المحطة بالعصر المملوكي منذ (القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي) فأنشئت بها قلعة متينة البنيان مربعة الشكل بداخلها أعمدة

(1) عبد القادر الجزيري الحنبلي: الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، ج1 ص 449-451.
(2) السيوطي: حسن المحاضرة، ج2 ص 210.
(3) اليعقوبي: البلدان، ص 340.
(4) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج12 ص 76.
(5) عبد القادر الجزيري الحنبلي: الدرر الفرائد، ج1 ص 479.
(6) المقريزي: السلوك، ج4 ص 696. ابن إياس: بدائع الزهور، ج2 ص 101.

اسطوانية من حجر الصوان والرخام[1]. وفي عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون أنشأ بها الحاج آل ملط الجوكندار خانا للمسافرين وبئرا وساقية ماء[2].

وفي عام (913هـ/ 1507م) توجه الأمير علاء الدوادار الثاني إلى عجرود، وأصلح السواقي التي في مناهل الحج[3]، وأنشأ بها السلطان قانصوه الغوري أبراجا عام (915هـ/ 1509م) وجعل بها جماعة من المماليك يقيمون سنة ثم يعودون إلى مصر ويأتي آخرون لحراسة التجارة والتجار[4]، وجدد خانًا بها[5].

ويبدو أن سلاطين وأمراء المماليك اهتموا بالطرق بشكل خاص، وإصلاحها؛ لأنها طرق تجارية هامة، فمن أهم مراحل الطريق إلى الحج وأهم محطاته التجارية الطريق إلى نخل[6]، وقد عمل فيها الأمير آل ملك الجوكندار في دولة السلطان الناصر محمد بن قلاوون بركا مصانع وأنشأ بها السلطان الغوري قلعة، وأصلح عدة مناهل بالطريق[7].

كذلك اهتم القائمون على الأمر من المماليك بتمهيد الطرق الوعرة، ونجد في الطرقة من نخل إلى إيلة، وهي خمس مراحل وبها العقبة العظمى[8]، وهي منطقة وعرة وشاقة، وقد عمل

(1) أحمد رمضان أحمد: شبه جزيرة سيناء في القرنين (12،13)، اطروحة (ماجستير)، جامعلة القاهرة. كلية الاداب. قسم التاريخ، 1974م، ص 211.

(2) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج11 ص 74.

(3) ابن إياس: بدائع الزهور، ج4 ص 129.

(4) ابن إياس: المصدر نفسه، ج2 ص 152.

(5) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج11 ص 74.

(6) السيوطي: حسن المحاضرة، ج2 ص 310.

(7) ابن إياس: بدائع الزهور، ج4 ص 152.

(8) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج1 ص 52.

السلطان الناصر محمد عام (719هـ/ 1319م) على تمهيد الصخور وتوسعة الطريق، وأنفق على ذلك مبلغًا كبيرا من المال[1].

كما اهتم السلطان قنصوه الغوري بإصلاح طريق العقبة فأرسل المعامري خاير بك لإزالة الأماكن الصعبة التي بها العراقيب وبناء خان لحفظ الودائع وبروج وفساقي وعمارة رصيف البحر عند العقبة[2].

وتشير الدراسات الحديثة إلى الحفائر الأثرية التي تؤكد عناية سلاطين المماليك في هذه المنطقة بتمهيد الطريق وإصلاح منشأته؛ فقد وجد في هذه المنطقة حجر تاريخي مكتوب فيه: "أمر بإصلاح هذه الأماكن الملك الناصر حسن ابن الناصر محمد ب قلاوون" كما أن هنالك إشارات إلى الإصلاحات التي تمت في عهد السلطات قانصوه الغوري، إذ عثر على حجر رخامي مكتوب فيه: "أمر بقطع هذا الطريق المبارك السلطان الملك الأشرف قانصوه الغوري"[3].

وكما اعتنى سلاطين وأمراء المماليك بالحسبة على الطرق، فكان القضاة أيضا قائمين على أعمال الحسبة في توفير الآبار وحفرها على الطريق، من ذلك قيام القاضي زين الدين عبد الباسط بحفر بئر، كثر النفع به في عيون القصب، التي جفت وعاني الحجاج الكثير لعدم وجود الماء العذب، فحفر القاضي هذا البئر، وكان كثير العطاء أصلح كثيرًا من المنشآت في طريق الحجاز واهتم بشكوى الحجاج[4].

وفي عام (834هـ/ 1430م) أرسل السلطان الأشرف برسباي الأمير شاهين العثماني وبعث معه المهندسين والبنائين لإصلاح المناهل على طول الطريق من القاهرة إلى مكة، فحفروا بئرين بزعم

(1) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج9 ص 60.

(2) ابن إياس: بدائع الزهور، ج4 ص 133.

(3) سيد عبد الحميد بكر: الملامح الجغرافية لدروب الحجيج، ص 115.

(4) ابن إياس: بدائع الزهور، ج2 ص 285 -286. المقريزي: السلوك، ج4 ص 860. أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج4 ص 355. ابن فهد: إتحاف الورى، ص 376.

وقبقاب، وكان ذلك نجاة للواردين عليها من المشقة الكبيرة التي كانوا يجدونها حتى كان يهلك بعضهم من العطش[1].

(1) المقريزي: السلوك، ج4 ص 860. أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج4 ص 355. ابن فهد: إتحاف الورى، ص 375.